

إشكالية التأزم الهوياتي في النقد ما بعد الكولونيالي: تحديد مؤشرات أزمة الهوية في التحليل الروائي

بشرى جزايري راد*

فرامرز ميرزايبی (الكاتب المسؤول)**

خليل پرويني***

هادي نظري منظم****

الملخص

تعد إشكالية الهوية من أهم مرتكزات النقد ما بعد الكولونيالي الذي غنى بتأثيرات الاستعمار على هويات المستعمرين انطلاقاً من جدلية الأنا/الآخر أو المستعمر/المستعمر وما يفرزه لقاءهما من تأزم هوياتي. وقد تطرّق الأدب الروائي لما بعد الكولونيالي لقضية الهوية والانتماء بشكل بارز، وقد تناول الروائيون ثيمة لقاء الشرق بالغرب لرصد تبعات هذا اللقاء على التشكلات الهوياتية لأن الاحتكاك بالآخر يجرّك الإحساس بالانتماء لدى المرء لبناء هوية مستقلة تميزه عن غيره. والآخر بالنسبة للشرقيين هو الغرب المستعمر الذي عمل جاهداً على تفويض وطمس هوياتهم. فاحتواء الرواية على قضايا المجتمع الثقافية، ومن ضمنها قضية الهوية على نطاق واسع، يؤهلها لتكون أرضية خصبة لدراسة الأزمة الهوياتية الناجمة عن صدام الأنا بالآخر. تأسيساً على أهمية موضوع الهوية وانعكاسه على عالم الرواية، سعت الدراسة هذه إلى تقديم إطار مبتكر لدراسة الأزمة الهوياتية اعتماداً على المنهج الوصفي - التحليلي العام والاستعانة بأدوات التفسير، والاستنباط، والدقة إضافة إلى القراءة الطباقية المعتدّة في النقد ما بعد الكولونيالي. وتوصلت الدراسة إلى إطار تحليلي لفهم الأزمة الهوياتية يتكوّن من ست مؤشرات رئيسية تحت عناوين: عقدة النقص والانبهار بالآخر (التغريب)، الفصام/ الشيزوفرنيا، عقدة الجنس/قلق الخصاص، الاغتراب، التخلف، والعنف. يتيسر فهم التأزم الهوياتي وموقفه في الرواية بتطبيق هذه المؤشرات وتحليلها حسب مدى ظهورها فيها.

الكلمات الدلّيلية: النقد ما بعد الكولونيالي، مؤشرات أزمة الهوية، جدلية الأنا والآخر، التحليل الروائي.

* خريجة مرحلة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة تربيت مدرس، طهران، إيران

** أستاذ في اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت مدرس، طهران، إيران

f_mirzaei@modares.ac.ir

*** أستاذ في اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت مدرس، طهران، إيران

**** أستاذ مشارك في اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت مدرس، طهران، إيران

تاريخ القبول: ١٤٤٤/٠٦/٢٣

تاريخ الاستلام: ١٤٤٣/١١/٠٦

المقدمة

لقد صاغت تجربة الاستعمار أو الكولونيالية حيوات ثلاثة أرباع البشر، وكانت هذه الصياغة من العمق لدرجة أن تأثيرها لم يقتصر على المجالات السياسية والاقتصادية بل تعدّتها إلى المجالات الثقافية والفكرية والأيدولوجية. وظهر تأثيرها الأعمق والأخطر على البعد الهوياتي للشعوب المستعمرة. حيث إن الاستعمار وبآلياته المختلفة خلف في ذواتهم عقداً نفسية متأصلة أهمها شعورهم الدائم بعقدة النقص والدونية. فلم يتوقف الجدل حول الهوية والانتماء، بعد مضي زمن طويل على انجلاء القوى الاستعمارية، بل أنه أخذ طابعاً متجدداً ساخناً. وجاءت النظرية ما بعد الكولونيالية لتزحزح المعطيات القديمة وتؤكد أن الاستعمار لا يزال يتواصل بأشكال عصرية كما صرّح "إدوارد سعيد". وقامت النظرية بمخلخلة وتقويض الخطاب الاستعماري الغربي المتمركز على ذاته لتعيد صوت المهمّشين. فكانت بمثابة ردة فعل عنيفة على المركزية الأوروبية وتحيزات خطابها الاستعماري الذي اختزل الشعوب وطمس هوياتهم ونصب الغرب حاكماً على العالم استناداً إلى مقولات زائفة أهمها مقولة العرق المتفوق. كما عُنيّت الدراسات ما بعد الكولونيالية بالثقافات والهويات والكتابات التي أريد لها الاندثار، لتعيدها من جديد إلى الساحة باعتبارها كتابات المقاومة القادمة من المستعمرات، فانبثقت آداب ما بعد الاستعمار الحافلة بتصوير ثقافة وهوية المستعمرين في مواجهتهم مع المستعمرين الطغاة، وسادت جدلية الأنا/الآخر أو الشرق/الغرب في آداب المستعمرات.

ليس من قبيل المصادفة أن تحتل إشكالية الهوية مكانة مركزية في الفكر الإسلامي المعاصر في ظل الإطار العالمي الجديد الذي جعل صدام الحضارات شعاره، وهدف إلى صهر الهويات والثقافات المختلفة في نمط ثقافي متمركز واحد هو النمط الغربي في شكله الرأسمالي أو ما يعرف بالعولمة التي حولت العالم إلى قرية كونية تتلاشى فيها حدود الهويات ومقومات تمايزها واستمرارها. فبرز إلى السطح مصطلح أزمة الهوية الذي يعتبره البعض سمة العصر الحديث، وكثرت الدراسات التي تناول أسباب الأزمة من أبعاد مختلفة خاصة فيما يتعلق بعلاقة الشرق بالغرب.

فقد توجّهت -الرواية، كتعبير عن أزمات المجتمع وانعكاس لظواهره ووقائعه، إلى

معالجة قضايا الهوية والانتماء، فظهرت مجموعة كبيرة من الروايات تناولت علاقة الأنا بالآخر وتأثيراتها على التشكلات الهوياتية، ما أتاح للباحثين فرصة قراءة الأدب قراءة هوياتية سوسولوجية تعقد الصلة بين الأدب والواقع. فقام البحث، تسهيلاً لعملية التحليل الروائي تحليلاً موضوعياً بعيداً عن النقد الذوقي والتحليل العشوائي، بتحديد مؤشرات أزمة الهوية مع تفرعاتها لتحديد مدى أزمة الهوية في الرواية.

أسئلة البحث

ينشأ عن إشكالية البحث عن التأزم الهوياتي في الرواية سؤالان رئيسيان، وهما: ما هي أهم مؤشرات أزمة الهوية على ضوء مفاهيم النقد ما بعد الكولونيالي؟ وكيف تتجلى هذه المؤشرات في الرواية العربية؟

فبناء على مفاهيم النقد ما بعد الكولونيالي وعلاقة المستعمر بالمستعمر تظهر أهم مؤشرات أزمة الهوية على هيئة عقدة النقص والانبهار المفرط بالآخر، الفصام/ الشيزوفرينيا، عقدة الجنس، الاغتراب، التخلف، انتشار العنف. وتظهر جميع مؤشرات أزمة الهوية في الرواية بنسب متراوحة لأن الرواية العربية تركز للحديث عن أوضاع البلدان العربية في فترة ما بعد الاستعمار وتناول قضية الهوية بتمظهراتها المختلفة، تأكيداً على تفاعل العوامل الخارجية على رأسها الاستعمار مع العوامل الداخلية المؤدية للأزمة على نطاق واسع.

الدراسات السابقة

وقد أجريت عدة دراسات في هذا المجال فتناولت إشكالية الهوية وقضاياها على ضوء النقد ما بعد الكولونيالي مثل: مقال فصام الهوية بين أنوثة القاهرة ورجولة مقهورة: قراءة ما بعد كولونيالية في رواية العطر الفرنسي لأمير تاجر السر (٢٠١٨) لفرامرز ميرزائي وزملائه فتناول فيه جدلية الأنا الشرقي والآخر الغربي في إطار علاقة الرجل بالمرأة ولكن بمعادلة مغايرة لما جاء به الروايات السابقة فاستنتج أن الرواية تدل على الغياب الكبير للشعور بالقهر الاستعماري عند المستعمر. ومقال فجيعة الهوية في رواية "حلم على الضفاف لحسية موساوي - تشظي الآخر أم تغريب قسري (٢٠١٤م)

لمصطفى بوجملين. تناول فيه مسألة الهوية داخل النص الروائي الجزائري الحديث، ووضع الإشكاليات الرئيسة كالاتية: ما تمظهرات الهوية عند الآخر في الميزان القيمي للأنا الساردة؟ ما تجليات الوطن/المنفى في حوارية الأنا مع الآخر؟ ما ظلال التشتت الأسرى الذى يلمّ بالشخصية المغتربة/المستلبة؟ ليخلص إلى نتيجة مفادها انبهار بطله الرواية بالغرب من خلال وصفها المبدع لمدينة أوروبية ما يعرّى أزمة هوية المغترب. ومقال الهوية وإشكالية الأنا والآخر قراءة تحليلية في رواية سهرة تنكزية للموتى لغادة السمان (٢٠١٥م) لفيروز زوزو. وهو يتقصّى مفهوم الهوية وإشكالية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي، وعالج مدى نجاح الأنا في الحفاظ على هويتها في الغربة من خلال الرواية، ليخلص إلى نتيجة عدم التقوقع في الأنا العربية أو مواجهة الآخر الغربي في عالم مفتوح على كل الهويات الثقافية كما دلت الروائية.

وباللغة الفارسية نشير إلى مقال بررسى أبعاد گوناگون بحران هويت از دیدگاه شاعران نوگرای عراق (١٣٩٠ش) لمعصومة نعمتى وآخرين. تطرّق فيه الباحثون إلى تجليات الأزمة الهوياتية على المستوى الفردى، والوطنى، والقومى، والشرقى والإنسانى فى أشعار أربعة شعراء عراقيين. وتوصلوا إلى أنّ تصعيد الأزمة جاء نتيجة سلب الحرية الفردية بواسطة الأنظمة الديكتاتورية الحاكمة، ضياع الشعور بالانتماء الوطنى إثر تحطيم الهوية الفردية، اضمحلال الهوية القومية جراء إهمال الحكام والشعوب العربية لها، الذوبان فى الثقافة والحضارة الغربية ومسح الهوية الإنسانية والدينية فى عصر التكنولوجيا. وأيضاً نقد پسااستعمارى داستان بلند "سرگذشت كندوها" نوشته آل احمد (١٣٩٢ش)، سيد على قاسم زاده. سعى المقال إلى رصد تجليات النظرية ما بعد الكولونىالية فى الرواية "جلال آل احمد"، ويقترّب من بحثنا فى محورين: أولاً تحليل الرواية على أساس النقد ما بعد الكولونىالى وثانياً محور الانبهار بالآخر. لكن الباحث لم يتطرّق إلى موضوع أزمة الهوية من وجهة نظرنا. ومقايسه وتحليل جلوه هاى پسااستعمارى در رمان هاى "موسم هجرت به شمال" طيب صالح و"سووشون" سمين دانشور (١٣٩٢ش) رضا ناظميان ومريم شكوهى نيا. المقال يقترّب من وجهة نظرنا فى تحليل الروايات على ضوء النقد ما بعد الكولونىالى إلا أنه يبتعد عنها فى اكتفائه

بالمفاهيم ما بعد الكولونيالية دون التعرّض إلى مفهوم الأزمة وخصائصها. ومقال خوانش يساستعماري موسم هجرت به شمال اثر الطيب صالح (١٣٩٤ش) كمال باعجري وشهريار نيازي. عالّج الباحثان بعض مفاهيم ما بعد الكولونيالية في الرواية مثل: الأنا/ الآخر، مفهوم التهجين، العرق، الجندر، المركزية الأوروبية، الجنس. ليخلصا إلى أنّ مفهوم الأنا/الآخر أو المركز/الهامش هو المسيطر على المفاهيم الأخرى في الرواية. ومقال بررسى هويت يساستعماري در رمان "مملكة الفراشة" اثر واسيني الأعرج با تكيه بر ديدگاه هومي بابا (١٣٩٦ش) لسيد حسن فاتحي وبى بى راحيل سن سبلى. قام البحث بتحليل الهويات ما بعد الكولونيالية وكيفية تشكّلها في مرحلة ما بعد الاستعمار اعتماداً على آراء "هومي بابا" ليخلصا إلى أنّ أغلب شخصيات الرواية في فترة ما بعد الاستعمار تحمل هويات مهجّنة ظهرت في اختيار الأسماء، طريقة اللبس، واللغة، والدين العرق والثقافة والفنون. وقد نحى المقال منحاً متميّزاً في تقصّيه الهويات ما بعد الكولونيالية وتحليلها لكنه يبتعد عن منظورنا النقدي لعدم تطرّقه لمظاهر الأزمة الهوياتية وأسبابها واكتفائه برصد تمظهرات الهويات المهجّنة. ومقال در جست وجوى خويشتن؛ واکاوى بحران هويت در رمان "ساقه بامبو" بر اساس نظريه "اريكسون" (١٣٩٧ش) على افضلى وآخرين. قام الباحثون بتحليل رواية ساق البامبو لسعود السنعوسى على أساس نظرية إريكسون التي ركّزت على البحث في الهوية الفردية وتقصى أسباب أزمة الهوية لدى المراهقين، وهي من وجهة نظرنا نظرية مهمة لكنها ناقصة في فهم أبعاد الهوية المختلفة لانكبابها على الجانب الفردي للهوية. وقد قُسم تحليل أزمة هوية بطل الرواية إلى قسمين: الأول بعنوان الاغتراب وضياع الهوية، تمّ التركيز فيه على الاغتراب الذاتي للبطل. والقسم الثاني بعنوان الاضطرابات والصراعات الاجتماعية عرض فيه أزمة البطل في مجتمعه الجديد وشتاته بين تناقضات انتمائه للفلبين ووطن أمه وبين الكويت ووطن أبيه ورفض العائلة له. ولا شك أنّ المقال يقترب من منظورنا في تحليل أزمة الهوية خاصة في مؤشر الاغتراب. وفي إطار المؤشرات يمكن أن نذكر مقال عقده حقارت در رمان "ما لا تذرّوه الرياح" با تكيه بر نظريه "آلفرد أدلر" (١٣٩٦ش) كتابة بهنام فارسى وآخرين. قام الباحثون بتحليل مظاهر عقدة النقص على شخصية

بطل الرواية الذي يعكس شعب الجزائر عامة على أساس آراء عالم النفس النمساوي "ألفرد أدلر" الذي يؤكد على أثر العوامل الاجتماعية في خلق عقدة النقص. وتوصلوا إلى أنّ العقدة تسببت في ظهور ثلاث مؤشرات أساسية على البطل: الاغتراب، تحقير الآخرين والشعور بالتفوق، وتقليد الآخر. وخشونت سياسية جمعي ودولتي وبيامدهاي آن در رمان "ستاره آگوست" صنع الله إبراهيم (١٣٩٧ش) لفرامرز ميرزائي وآخرين. قاموا فيه بتحليل الرواية استجلاء لمظاهر العنف السياسي فيها على أساس آراء المنظر السياسي "تيد روبرت غور" الذي يرى الحرمان عامل العنف السياسي و"تاسيت" الذي يعتقد أنّ عنف الحكومات يؤدي إلى انطوائية وعزلة المواطنين مما يزيد وتيرة العنف السياسي من جهته. لا شك أنّ المقال يعدّ مصدراً أساسياً لتحليل مظاهر العنف السياسي في الرواية ضمن مؤشر العنف السياسي.

فيلاحظ القارئ أنّ دراسات كثيرة تناولت قضية الهوية، إما بالتركيز على الهويات المهجّنة وارتباطها بالعمولة واعتبارها سبب الأزمة، أو بالتركيز على العلاقة الجدلية بين الشرق والغرب والشعور بالنقص أمام الآخر الحضاري، ولكنها لم تقدم أيّ إطار محدّد يلخص أهمّ مؤشرات الأزمة ويسهل البحث فيها ولم تتناول الموضوع من المنظور النقدي الذي عُني بتقديم إطار للتأزم الهوياتي، فهذا ما يميز بحثنا هذا عن تلك الدراسات، لتحديده أهمّ مؤشرات الأزمة بالاعتماد على النقد مابعد الكولونيالي الذي يضع الهوية موضع التساؤل انطلاقاً من علاقتها بالآخر الذي عمل على تهديدها وطمسها مع تقديم رسم بياني لهذه المؤشرات وتفريعاتها لتفيد الباحثين في مجال التحليل السردى للرواية.

الأزمة الهوياتية في النقد مابعد الكولونيالي في ظل جدلية الأنا والآخر
يتناول النقد مابعد الكولونيالي آداب مابعد الاستعمار في نمطها: كتابة المستعمر
وكتابة الآخر المستعمر، فنشأ بينهما «خطاب مابعد الكولونيالية النقدي واضعآ آليات
واستراتيجيات تتيح له قراءة النص بكل ما يحمله من مضامين، وما يعكسه من
أيدولوجيات بالإضافة إلى تشكيلاته النصية القائمة على اللغة.» (أبوشهاب، ٢٠١٣:
٥٧) فمنذ منتصف القرن العشرين، ظهر نقد معطيات الاستعمار، في محاولات قام

بها مفكرون ونقاد ينتمون إلى العالم الثالث، من أمثال "إدوارد سعيد"، "هومى بابا" و"جاياترى سبيفاك". لكن قبل هؤلاء جميعا تناول "فرانتز فانون" هوية المستعمر في كتاباته وقام بتحليلها من منظور التحليل النفسى وأبرز العنصرية التى يلاقيها الإنسان الأسود فى مواجهته مع المستعمر. وقد آمن بأن مقاومة الاستعمار لاتتمّ إلا باستخدام العنف. (شيرزاديان، ١٣٨٨ش: ١٠) لكن "إدوارد سعيد" فقد خطّ اتجاهاً نقدياً جديداً فى التعاطى مع النصوص الأدبية وتبعه فيه "هومى بابا" و"جاياتارى سبيفاك" وغيرهم. وقد عُرف "إدوارد سعيد" باعتباره منشئ النقد ما بعد الكولونيالي. وابنى فكره النقدي على "القراءة الطباقية" التى تعنى حسب تصريحه: «التحليل الدقيق للاستراتيجيات الإمبريالية كما للمعارضة والمقاومة ضد الإمبريالية.» (سعيد، ٢٠١٤: ١٠) أى أنها «قراءة السيطرة الإمبريالية بنظمها وأنساقها مع قراءة موازية للمقاومة الوطنية المعارضة لهذه السيطرة، أى قراءة الثنائيات المتضادة فى علاقة الإمبريالية بالثقافة» (المناصرة، ٢٠٠٤: ١٢٨-١٢٩) وتنتج عن هذه القراءة النقدية المستقاة من آلية "التمثيل" مجموعة من الثنائيات مثل: الأنا/الآخر، الشرق/الغرب، الرجولة/ الأنوثة، الأسود/الأبيض، التابع/المتبوع، البدائي/المتحضّر، السيد/العبد، التى غالباً ما تُبنى هويات الاختلاف من خلالها.

يهمّ الباحث ما بعد الكولونيالي رصد قضايا هامة متعلّقة بالهوية فى إطار علاقة الأنا بالآخر وجدلية الشرق/الغرب، خاصة تلك الهويات التى أريد لها الاندثار والطمس لتعود ثانية إلى الظهور بصفتها الأخرى (جاسم الموسوى، ٢٠٠٥: ٧١) وقد أكد بعض الدارسين على ضرورة طرح سؤال الهوية فى زمن انفجار هويات كبرى «كانت تؤسس وهم الانتماء، والوطن، والقومية، وتشردت الجموع البشرية... فيما يشبه طوفان ثانٍ، بعد طوفان نوح، طوفان يؤسس/يشئت الأجناس والأعراق والشعوب، والمجتمعات من جديد.» (مهنا، ٢٠١٤: ٧٩) بناء على هذا الاتجاه النقدي ينبغى طرح الهوية فى سياق تاريخي معين تشابكت فيه الأحداث والتغيرات السياسية مما يعقد مهمة الكشف عن حدود الهوية وبناءها الإيديولوجي.

وترددت تسمية "الهويات ما بعد الكولونيالية" فى الأوساط النقدية إشارة إلى

الهويات التي تفتحت في زمن مابعد الاستعمار حاملة ترسبات الاستعمار وتأثيراته مشكّلة نموذجاً جديداً، «يرفض المفاهيم التي تضى على الهوية والذات طابعاً جوهرياً، ويهتم بالمعطيات التي تجعل الهوية لاتنقطع عن التحقق. فهي موجود مفتوح على الصيرورة والتحوّل والاختلاف لأنها معرضة للتهجين المضاعف وللتنقيح المتكرر.» (الحضراوي، ٢٠١٤: ١٢٣) هذا ما يؤكدّه "هومى بابا" و"إدوارد سعيد". فرغم أنّ هذا الأخير يعتبر الهوية الوطنية أساس الهوية إلا أنه لا يحدّ من آفاقها ويؤمن بـ"العالمية" التي تعنى تحمّل المخاطرة «كى نتجاوز الحقائق السهلة التي تقدمها لنا خلفيتنا ولغتنا وجنسيّتنا والتي غالباً جداً ما تحجب عنّا حقيقة الآخرين.» (سعيد، ٢٠٠٣: ٩) لأنّ جميع الثقافات «بسبب التجربة الإمبراطورية، منشبكة إحداها في الأخريات، ليست بينها ثقافة منفردة ونقية محض، بل كلّها مهجّنة، مولّدة، متخالطة، متميزة إلى درجة فائقة وغير واحدة.» (سعيد، ٢٠١٤: ٦٩-٧٠) إذن لا يمكن أن تكون الهوية في عزلة وانغلاق على الذات.

ترتبط الأزمنة الهوياتية بجدلية الأنا والآخر لأن الاحتكاك بالآخر يحرّك الإحساس بالانتماء لدى المرء ويدفعه إلى بناء هوية مستقلة تميزه عن غيره. وشكّل اللقاء الحضاري مع الغرب بين «الأنا الفردية والجمعية بالآخر المتفوق الغالب المهيمن، قيمة أساسية من قيم الفكر العربي.» (بن علي، ٢٠٠٩: ١٠٧) وأوحى بأنّ الهوية ليست بنية بسيطة بل هي وسيلة لفهم مزيج التطابق والاختلاف. (أعرجي، ١٣٩٦: ٢٨) وطرح تساؤلات مركزية في "جدلية الأنا والآخر" منها: من أنا؟ من هو الآخر؟ لأنّ كل منهما يحاول الحفاظ على هويته وتعزيزها مما قديؤدى إلى تضعيف أو طمس هوية الطرف الآخر. (شكري، ١٣٩٥: ٦٩) وبدأ سؤال الهوية يورق الإنسان العربي المستعمر نتيجة احتكاكه بالآخر الذي سبقه حضارياً فأدرك أهمية هويته فى لحظة مأزومة، فارتد عندئذ إلى مكوناته الأصلية، التي تمنحه الإحساس بوجوده، فيحسّ بضرورة الحفاظ على هذه المكونات مهما كانت التحديات. (حمود، ٢٠١٣: ١٣) فقضية الهوية يعاد طرحها بقوة عند الإحساس بتهديدها أو تهميشها.

إذن فالجدلية تتخذ موضعاً مركزياً فى النظرية مابعد الكولونيالية «من خلال افتراض

وجود مقابلة ثنائية ينقسم إليها العالم. وقد اعتمد التأسيس المتدرج للإمبراطورية على العلاقة الهرمية الثابتة بوجود المستعمر بوصفه الآخر بالنسبة للثقافة المستعمرة. «(أشكروفت وآخرون، ٢٠١٠: ٩٣) فإن الآخر لدى الشعوب المستعمرة، هو المستعمر/ الغربى المتقدم تقنية ولديه القوة والغلبة فيفرض لغاته وأفكاره وقيمه ومصالحه على الذوات الحضارية الأخرى. (الزهراني، ١٩٩٩: ٥٥) هذه الحقيقة قد دفعت الغرب لتشكيل خطاب كولونيالي يحدد ماهية الآخر الشرقي وفقاً لمنظومته المعرفية وخدمة لمصالحه، فصوره همجياً وبربرياً وغير حضارى يحتاج إلى من ينتشله من تخلفه، تبريراً لفرض الهيمنة عليه واستعمار واستنزاف موارده وثوراته. وانبثقت ردة فعل عكسية من قبل المستعمر تقوم على تفكيك هذا الخطاب وتقويض استراتيجياته والكشف عن زيف أقاويله وادعاءاته بإخضاع الآخر المستعمر للدراسة. كل هذا يعكس الصراع القائم على التمثيل الذى تحدّث عنه "إدوارد سعيد".

ودفع هذا الصراع القائم بين الأنا والآخر كثيراً من المفكرين والأدباء لمعالجته، فبزغت روايات تناوله على أساس «واقع عربى مهزوم ومأزوم، يعانى الاستعمار والتخلف والانقسامات.» (التلاوى، ٢٠٠٠: ٤٢) وأغلبها تعامل مع الموضوع تعاملماً أحادياً تتكرر فيها سمات شبه ثابتة. (إبراهيم، ١٩٩٨: ٣٣) كأن يسافر أبطال هذه الروايات، وهم من المثقفين، إلى أوروبا طلباً للعلم والمعرفة فتكون الرواية عبارة عن تجربة ذاتية تحمل طابع تجنيس العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب، ويحدث فى معظمها لقاء المثقف الشرقى بالمرأة الأوروبية ليكتشف من خلالها أبعاد الحضارة الأوروبية. (مسلم العانى، ١٩٧٩: ٤١) والإطار المكانى هى العواصم الأوروبية كـ "باريس" و"لندن"، لتنتهى إلى «فكرة خاطئة مفادها أن الأمة العربية ستنهض لتبنى حضارة جديدة ومعاصرة ولكن هذه الحضارة لن يقدر لها أن تقوم ما لم تأفل حضارة أوروبا.» (المصدر نفسه: ١٥٣)

مؤشرات أزمة الهوية على ضوء النقد ما بعد الكولونيالي

إنّ النقد ما بعد الكولونيالي لا يقوّلُ الناقد ولا يحدّد من حرّيته فى التعامل مع

النصوص، ومع أنّ هذا الأمر يعرقل مهمة معرفة حدود النقد مابعد الكولونيالي وآلياته وأساليبه، إلاّ أنّه يعتبر ميزة يمتاز بها هذا الاتجاه النقدي؛ فكثرة القراءات والتأويلات تضع كل باحث في فضاء جديد يضطرّه إلى الإلمام بجوانب عديدة وخفية من النص لفهم العلاقة بين المستعمر والمستعمَر. والأمر إذ ينطبق على النقد ما بعد الكولونيالي عامة فإنّه ينطبق على واحد من أهمّ حقوله بشكل خاص وهو حقل الهوية. هذا القول قد يفسّر عدم وجود دراسة تحدّد معالم أزمة الهوية وتشير إلى أهم مؤشراتنا؛ فرغم كثرة الآراء والاتجاهات حول الهوية كحقل معرفي واسع، ورغم تشعب الدراسات الأدبية مابعد الكولونيالية التي تناولت الهوية في إطار العلاقة الجدلية بين الشرق والغرب، إلاّ أننا -كما ذكرنا في مقدمة البحث- لم نعثر على دراسة تناولت أزمة الهوية من وجهة نظرنا المعنية بتقديم إطار لأهمّ مؤشرات الأزمة الهوياتية، ما دفعنا إلى تحديد إطار لأهمّ هذه المؤشرات يعبّد مهمة تحليل النصوص.

إنّ المؤشرات التي ستُذكر تباعاً، لم تأت بناء على آراء منظرّ معين؛ إذ إنّنا قصدنا دراسة الهوية على ضوء مفاهيم النقد مابعد الكولونيالي لتأسيساً على نظريات علم النفس والاجتماع وغيرهما. فجاءت هذه المؤشرات استنباطاً من معلومات مستقاة من قراءة مجموعة كبيرة من الدراسات المتعلّقة بالهوية والنقد مابعد الكولونيالي والتي تدلّ في مجموعها على تقابل المستعمر والمستعمَر وما يفرزه من ثنائيات تناقضية تؤدّي إلى تأزّم الهوية لدى المستعمرين من وجهة نظر النقد مابعد الكولونيالي.

عقدة النقص والدونية / الانبهار بالآخر والتشبه به (التغريب)

يرجع الفضل في تحليل عقدة النقص لدى المستعمرين والبحث في أسبابها إلى " فرانتز فانون" في كتابه "بشرة سوداء أقنعة بيضاء" حيث يقوم بتحليل وجودي، نفسي واجتماعي -اقتصادي عن أثار الاستعمار في جزر "المارتينيك"، وخلق أزمة وجودية للإنسان الأسود. باعتقاده، لا بدّ من تحليل قضية السواد تحليلاً نفسياً لفهم الاختلالات العاطفية المؤدية إلى إيجاد عقدة النقص ويعتبرها ناتجة «أولاً من الخلفيات الاجتماعية والاقتصادية وثانياً من تذويت العقدة.» (فانون، ١٣٥٣ش: ٩) نافيةً أن تكون نتيجة

عوامل فردية وعرزية كما ذهب العالم النفساني "فرويد". ومن ثم بحث في «عمليات تذكيت السواد» و"تبييض الجلد" أي تذكيت عقدة النقص المبنية على الخلفيات الاجتماعية والسياسية والرغبة في العرق الأبيض. «(باغجری، ١٣٩٢ش: ١٦٦) فيؤكد أن تذكيت عقدة النقص يشجع الواقع الاجتماعي-الاقتصادي قائلاً إن: «الأسود لا يشعر بالحقارة بل يشعرون بها.» (فانون، ١٣٥٥ش: ١٥٣) وأنه يستشعر حقيقة سواده مع أول نظرة من الرجل الأبيض. ويرى أن التعارض بين صور الأسود والأبيض يؤدي إلى اختلافات عديدة؛ فالأسود رمز للدنس، والجنس، والهمجية أما الأبيض فيرمز للطهارة، والحضارة والرقي. والأسود «من اللحظة التي يحس فيها بالاختلاف بينه وبين الأبيض الذي أرساه الأوروبي، يشعر بقلق واغتراب ذاتي.» (فانون، ١٣٥٣ش: ٨٤-٨٥) وتمثلت أطروحة الكتاب في «نزع اغتراب الأسود الذي تذكّت النظرة المحدقة العنصرية للآخر الأبيض، التي غالباً ما يتم التعبير عنها بوصفها عقدة النقص.» (سى غبسون، ٢٠١٣: ٨٧) وكرس جهوده في البحث عن وسائل لتقويض هذه العقدة ليؤكد أن الأمراض النفسية ليست عنصراً أساسياً في الواقع الإنساني لكنها نتاج الوضع الثقافي السياق الاجتماعي. لا يتعد هذا الرأي عن اعتقاد عالم النفس النمساوي "آدلر"، إذ يرجع عقدة النقص إلى السياق الاجتماعي. ويرى أن «جميع البشر يعانون من إحساس النقص بدرجات مختلفة.» (آدلر، ٢٠٠٥: ٧٩) وأنه إحساس طبيعي مشترك يساعد على صناعة الذات والتكامل لكنه «يخرج من هذه القاعدة الإيجابية إذا خرج من إطار الإحساس وتحوّل إلى عقدة.» (فارسي وزملاؤه، ١٣٩٦ش: ١١٨)

وقد أرسى الغرب في سعيه الحثيث إلى استعمار الشعوب، معالم تفوقه فهو يملك كل ما يؤهله إلى السيطرة على العالم وإرساء هويته المتعالية. بدءاً من العرق الذي استخدم لتصنيف البشر إلى مجموعات متميزة جسمانياً وبيولوجياً ووراثياً والتمييز بين الأعراق النقية والمختلطة والذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالاستعمار «لأن تقسيم المجتمع البشري بهذا الشكل لا ينقسم عن حاجة القوى الكولونيلية لفرض هيمنتها على المستعمرين، ومن ثم تبرير المشروع الإمبريالي.» (أشكروفت وآخرون، ٢٠١٠: ٢٩٧) وخلق هيكل

هرمى للتنوع البشرى، يقع الأوروبي الأبيض على رأس هذا الهرم ويستقر الزنوج أو الأفارقة السود فى القاع بسبب لونهم وثقافتهم التى يزعم أنها بدائية (المصدر نفسه: ٢٩٨) وبهذا فإنّ اختلاف لون البشرة أو ما يعرف بالجندر هو أبرز سمات التمييز العرقى الذى رسّخ عقدة النقص لدى الأسود وعقدة التفوّق لدى الأبيض. وهذا ما يجرّهم إلى الشعور بالعجز والانهيار المفرط بالآخر ومحاوله تقليده. ويسمى الإنسان المحتقر بمثابة «الآخر الذى لا يستطيع تمثيل نفسه». (مكارىك، ١٣٨٨ش: ٣٣٦) وكما يقول "فانون": «يتبنى الشاب الأسود بصورة ذاتية موقف الرجل الأبيض». (فانون، ١٣٥٥ش: ١٤٧) لأن الهوية المختزلة المستشعرة للنقص والحقارة بحاجة إلى من تتطلّع إليه وتشبه به، وبهذا تظهر هويات تابعة.

الفصام / الشيزوفرنيا: الهروب من الواقع واللجوء إلى الخيال

ظهرت مصطلحات علم النفس فى النظرية مابعد الكولونيالية لتحليل تبعات الاستعمار فى نفوس المستعمرين. منها مصطلح "الفصام" أو "الشيزوفرنيا" وهو بالأصل «مرض ذهنى يؤدى إلى نقص انتظام الشخصية وإلى تدهورها التدريجى. ومن خصائصه الانفصام عن العالم الواقعى الخارجى. فيعيش المريض فى عالم خاص بعيداً عن الواقع، وكأنه فى حلم مستمر. ويعرف أحياناً باسم "انفصام الشخصية وأيضاً تفكك الذات». (زهران، ٢٠٠٥: ٥٣٣) ومن أعراضه «الاستغراق فى الذات، ويعيش المريض سجيناً داخل نفسه كما لو كان فى جزيرة منعزلة تملؤها أوهامه وخيالاته، وهى بالنسبة له حقيقة فلا يرى الواقع الموضوعى. لأنه يعتبر العيش فى عالم خيالى أحسن من الوضع الأليم». (المصدر نفسه: ٥٣٦ و٥٣٧)

وفى دراسات مابعد الكولونيالية استخدم المصطلح للدلالة على حالة المستعمر جراء صدامه مع المستعمر وثقافته أثناء وبعد الاستعمار، إذ يصاب بتفكك الذات، فيهرب من واقعه المرير والأليم ويلجأ إلى عالم الخيال والأوهام؛ «فالإنسان إذا لم يوفق بين ميتافيزيقيا ذهنه وأفكاره ومعتقداته وبين التقلبات الواقعية وتغييراتها فى حياته

اليومية، فإنه سيصاب بـ"شيزوفرينيا".» (فيرحي وزملاؤه، ١٣٨٣ش: ٤) ومن منظور التحليل ما بعد الكولونيالي فإنّ للاستعمار بكافة مظهراته، اليد الطولى في زعزعة التوازن الفردي والاجتماعي وظهور أعراض مرضية شبيهة بأعراض مرضى الفصام. حيث يبتعد المرء تدريجياً عن واقعه ويعيش في أوهامه وخيالاته.

عقدة الجنس / قلق الخضاء

من منطلق النقد ما بعد الكولونيالي فإنّ هيمنة الرجل على المرأة في النظام الأبوي يشبه هيمنة المستعمر على المستعمّر في العملية الاستعمارية، (أشكروفت وآخرون، ٢٠١٠: ١٧٧) ولهذا فإن تجربة المرأة في النظام الأبوي تشبه تجربة الشعوب المستعمرة في جوانب عدة. بعبارة أخرى «كما أن السلطة والإمبريالية تبنى تفوقها واستعلاءها على الآخرين على أساس الثنائيات المتعارضة، فإنّ نظام التجنيس مبني على ثنائية تفوق الرجل مقابل دونية المرأة. تعارض المستعمر/المستعمّر وعلاقات القوة بينهما الظاهر على شكل ثنائيات الغرب/الشرق والرجل/المرأة، في الخطابين هو في الحقيقة نتاج لنظام السيد/العبد ذاته.» (شاهميري، ١٣٨٩ش: ١٣٣-١٣٤) وكما تقول الهندية "ليلي غاندي" الباحثة في الدراسات النسوية وما بعد الكولونيالية أن النظريتين سعتا إلى تقويض التراتب في الجنوسة/الثقافة/العرق، وشيئاً فشيئاً تبنينا دعوة ما بعد النبوية في رفض الثنائيات التي تبنى عليها هيمنة النظام الأبوي/الاستعماري.» (غاندي، ١٣٨٨ش: ١٢١)

أخذ موضوع تجنيس العلاقات الحضارية حيزاً واسعاً في النظرية ما بعد الكولونيالية، حتى عدّ المرتكز الأساسي للنظرية ما بعد الكولونيالية كما فعل "هانترز برتنز"، إذ يقول: «الدراسات ما بعد الكولونيالية تنشغل بكيفية توظيف النصوص الغربية لمعادلة تفوق المستعمر الذي عادة ما يكون مذكراً وتهميش المستعمّر المؤنث.» (برتنز، ١٣٨٧ش: ٢٤٧) وانتشرت الدراسات النسوية على يد "سيفاك" التي اهتمت بإعلاء صوت "المهمّش" و"التابع" خاصة فئة النساء. فالمرأة مستعمرة ومهمّشة مرتين؛ مرة في النظام

1. Leila Ghandi

2. Hants Birtens

الأبوى من قبل الرجل ومرة فى النظام الاستعمارى من قبل المستعمر. ولاشك أن لعقدة النقص دوراً بارزاً فى تعزيز عقدة الجنس، فالإنسان المستشعر للنقص والدونية إزاء الآخر يحاول اثبات رجولته وفحولته عبر العلاقات الجنسية ولو استدعى الأمر اللجوء إلى العنف الجنسى.

وقد تناول "جورج طرابيشى" موضوع تجنيس العلاقات الحضارية فى الروايات العربية لأول مرة، مستفيداً من آراء "فرويد" و"فانون" فى التحليل النفسى. فقد سلط "فانون" الضوء على جدلية العنف الجنسى بين المستعمر والمستعمر التى تسترجع علاقات الهيمنة والرضوخ «فالرجل الأبيض باغتصابه المرأة السوداء، يشعر الزنجى بأنه رجل مخصى، والزنجى بإقامته علاقات جنسية طوعية أو غصبية مع المرأة البيضاء، ينتقم من المستعمر ويثبت له أنه رجل مثله». (طرابيشى نقلاً عن فانون، ١٩٩٧: ٩) ومن المؤكد «أن جدل القهر الكولونىالى والاعتصاب الجنسى قد جعل الكثيرين من أبناء المستعمرات المقهورين والمخصيين نفسياً يهتفون بينهم وبين أنفسهم عند مرآهم لامرأة بيضاء نقية البشرة: هذه امرأة اذا ركبتها فقد ركبت أمة بكاملها». (المصدر نفسه، ١٩٩٧: ٩-١٠) فوضعية الإنسان المقهور تفجر قلق الخصاص لديه والذى يتضمن الشعور بالتهديد الدائم من قبل الآخر المتسلط كما يتضمن شعور العجز والدونية. لأن القوة التى «يؤكد بها الشخص ذكوره أو أنوثته متناسبة مع تأكيد ضدها فى اللاوعى أى انعدام الذكورة أو انعدام الأنوثة». (حجازى، ٢٠٠٥: ٩٠) ولهذا يرى "طرابيشى" أنه: «ليس من قبيل الصدفة أن يكون نعت "البكر" و"العذراء" قد اطلق على قارات ومناطق وغابات بكاملها». (المصدر نفسه، ١٩٩٧: ٨) فعلاقة الفاتح والمستكشف بالأراضى البكر كعلاقة المستعمر بالمستعمر أو هى علاقة الرجل بالمرأة أى علاقة سيطرة ورضوخ. وقد وظف الكتاب بكثرة فى نتاجهم الإبداعى علاقة الرجل بالمرأة لدلالة على اللقاء الحضارى بين الشرق والغرب حتى غدت ثيمة أساسية. لكنهم عكسوا المعادلة الكولونىالية السائدة؛ فاصبح الرجل رمزاً دالاً للشرق والمرأة رمزاً للغرب ومشتهاة للاغتصاب من قبل رجولتهم الشرقية المسحوقة ورداً على الاستعمار الغربى.

الاغتراب

ارتبط مفهوم الاغتراب بالانفصال والابتعاد عن الوطن أي الغربة المكانية، ومن ثم ارتبط بأزمة الهوية التي تعد من صميم النقد ما بعد الكولونيالي فلذلك تجاوز مفهومه المدلول المادى إلى ما هو أعمق وأبعد فيتجلى في الجانب الروحي والأبعاد الاجتماعية. وتناوله أول الأمر، بهذا المفهوم، الفيلسوف الألماني "هيجل"^١. (ستودة، ١٣٨٢ش: ٢٣٩) فدخل معظم الدراسات الأدبية والنفسية والاجتماعية، كحالة من شعور الفرد بانفصاله عن الواقع وعجزه عن التكيف مع المجتمع «فهو حالة إخفاق الفرد في تحقيق التوازن بين الواقعية والإمكانية». (نعمتى وآخرون، ١٣٩٣ش: ٢٢٢) فيشعر الشخص باغتراب نتيجة التعارض بين هويته وهوية الآخر الذي دأب على رصّ ثنائيات متعارضة تثبت تفوقه ودونية غيره. فالمرء الذي لا يعزّز ثقته بنفسه يبقى حائراً «لا يعي كنه ذاته ولا يرى للوجود معنى». (بن خروف، ٢٠١١: ٤٧) حينئذ تتأزم هويته نتيجة مؤثرات نفسية أو خارجية تززع قدرته على إدراك ذاته وغاية وجوده، فينسلخ من ذاته ويمسى غريباً عنها. فالاغتراب هو «التوتر والقلق النفسى، وضياح الذات أو استشعار الخوف من فقدان الأمن والأمان». (جمعة، ٢٠١١: ٢٤) يشمل الاغتراب أنماطاً أربعة رئيسية: الذاتى، والاجتماعى، والسياسى، والمكانى.

الاغتراب الذاتى

تبدأ فكرة الاغتراب عن الذات بعدم الانتماء إلى المجتمع لأن الفرد بابتعاده عن طبيعته الجوهرية وتنافره مع ذاته يفقد انتماءه «وحينما يحدث ذلك فإن الفرد لا يعود ممتلكاً لناصية جوهره وهكذا فإنه يغترب عن ذاته وعن طبيعته الجوهرية». (شاخت، ١٩٨٠: ١٠١) والاغتراب الذاتى ينشأ من التناقض بين الإنسان وبين العالم الخارجى أى بين ما هو عليه وبين ما يجلم به، و«هذا راجع إلى الظروف اللاإنسانية التى تعيشها الذات فلا تتضح بذلك الهوية، ولا تعرف حقيقة ما يجب أن تكون عليه». (بن خروف، ٢٠١١: ٤٧) ويرى عالم النفس الألماني الأمريكى "إيريك فروم"^٢ بأن انكار الذات

1. Hegel

2. Erich Fromm

هو أخطر أشكال الاغتراب، وهو إخفاق الإنسان في أن «يصبح ذاتاً أصليةً لها سمات معيارية ومثالية تحدد ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان.» (عباس يوسف، ٢٠٠٤: ٦٠) ويعكس الاغتراب الذاتى مستويين متباينين: «الأول يمثّل الشخص الذى يتحرر من حلم الجماعة وقيمتها التى قد لا تتلاقى وقيمتها الإنسانية. فهو شخص استطاع الاكتفاء بذاته، والمستوى الثانى فيمثله الشخص المهمش اجتماعياً والذى لا يستطيع أن يجسّد ذاته داخل المجتمع لينتهى به الأمر إلى الاغتراب الذاتى.» (فرهنگ نيا وآخرون، ١٤٣٦ق: ٣٩٥) وبهذا تكون هوية الفرد مشتتة فهو يشعر بضياح أو تكون منغلقة لنفوره إقامة علاقات اجتماعية مع الآخرين. وفى أغلب الأحيان يأتى البحث عن هوية بديلة كحل للاغتراب الذاتى، ولهذا نجد الإنسان الشرقى المستعمّر ينهر بهوية الآخر المتفوق، أو يحاول الرجوع إلى تراثه وأمجاده بحثاً عن مقومات هويته الأصيلة وإحيائها.

الاجتراب الاجتماعى

يعزو بعض الباحثين انعزال الإنسان عن مجتمعه إلى ضغوط المجتمع ومتطلبات الحياة، فينتج عنه تأزم نفسى كبير، وبالتالي ينفر المرء من مجاراة التغيرات الاجتماعية ويصل به الأمر إلى نبذ الأعراف والتقاليد السائدة فى مجتمعه وذلك بمحاولته لحرق النواميس السائدة وإسقاطها «إما بتغيير القانون الاجتماعى (وهذه ردة فعل إيجابية ثورية) أو بالتدمير واستغلال الثغرات لاسدّها وإنما لتوسيعها وتحطيم القيود التى تكبله ونفض الغبار عن نفسه.» (العبدالله، ٢٠٠٥: ٨٠) والأنا هنا لايعانى من انكار الذات فحسب بل يتجاوزها لتعانى الرفض والإنكار وسط الآخرين.

يخلق الانسراح عن المجتمع ونبذ نواميسه حالة من تصدّع المعايير أو ما يعرف بـ "اللأمعيارية"، وقد استند معظم الاجتماعيين فى تحديد هذا المفهوم «إلى توصيف "إميل دور كايم"¹ للأنومى أو ما يعرف باندثار القيم والمعايير وتشققها، لأنه حالة تصيب المجتمع فتنهار المعايير أو النظم والأنساق التى تنظم السلوك الإنسانى وتوجهه.» (ابن خروف، ٢٠١١: ٢٧) أو كما يعتبره البعض: «الحالة التى يتوقع فيها الفرد بدرجة كبيرة

أن أشكال السلوك التي أصبحت مرفوضة اجتماعية غدت مقبولة تجاه أية أهداف محددة أى أن الأشياء لم يعد لها أية ضوابط معيارية.» (الجبوري، ٢٠٠٨: ١٩) وبغياب هذه القواعد والضوابط يظهر ما يعرف بالأنومي أو اللامعيارية كمظهر من مظاهر الاغتراب الذي قد يفضى بالمجتمع إلى الفوضى وانتشار الفساد وارتفاع الجرائم. وقد أرجع "جورج لوكاتش" الإحساس بالاغتراب الاجتماعى إلى التناقض بين قيم الفرد الخاصة والقيم السائدة فى مجتمعه (عباس يوسف، ٢٠٠٤: ٢٨)

وأخيراً فإنّ الاغتراب الاجتماعى بشكل عام يظهر نتيجة تأزم هوية الأفراد ونفورهم من كل ما هو محلى ومتعارف فى مجتمعهم من أعراف وقيم وتقاليد وانكارها، وقد يصل الأمر إلى حد النفور من كافة أشكال الانتماء الوطنى والقومى.

الاغتراب السياسى

تظهر تجليات الاغتراب السياسى -الذى بات من سمات العصر الحديث وخاصة فى المجتمعات العربية- فى «العجز السياسى الذى يشير إلى أن الفرد المغترب ليست لديه القدرة على أن يصدر قرارات مؤثرة فى الجانب السياسى، كما يفتقد إلى المعايير والقواعد المنظمة للسلوك السياسى، بمعنى آخر يشعر المرء بأنه ليس له دور فى العملية السياسية.» (فرهنگ نيا وآخرون، ١٤٣٦ق: ٣٩٦) فيشعر بالعجز والعزلة إزاء المشاركة الإيجابية فى صنع القرارات. ولا عجب إن يخلق الاستعمار حالة من الاغتراب السياسى لدى الافراد والمؤسسات وأن يعزلهم عن المشاركة فى صنع القرارات باعتبار المستعمرين بدائين وغير قادرين على تمثيل أنفسهم. كما أن الحكومات المحلية والسلطات الديكتاتورية عادة ما تتمركز حول ذاتها نافية أى مشاركة من الأطراف.

الاغتراب المكانى

الاغتراب المكانى هو مغادرة الوطن والإحساس الذى يشعر به الإنسان فى بعده عنه وحنينه إليه، فالارتحال عن الوطن «يوّلد اغتراباً مكانياً لا تفتح معه إلا أبواب الوحشة ولا يصبح العالم إلا ثقب إبرة.» (بلاوى والآخرون، ٢٠١٢: ٨١) بات الاغتراب

المكانى من سمات العصر الحديث لما يتميز به العصر من بواعث ومحفّزات لانتشار هذه لظاهرة، من أهمّها الباعث السياسى وتباين المواقف والانتماءات السياسية الذى يسفر عنه «إثارة إحساس الناس بالضيق فى أوطانهم وبالذل فى ديارهم.» (روحى إبراهيم الخليلى، ٢٠٠٧: ٢٠) فيتمّ الاغتراب المكانى إما بشكل «طوعى يختاره الإنسان لأسباب عدة كعدم انسجامه مع المجتمع.» (الجبورى، ٢٠٠٨: ١٧) وإما قسرى تقتضيه دواع ومؤثرات خارجة تفرضه عليه، وعادة ما يرتبط بهجرة المثقفين وتركهم لأوطانهم للأسباب السياسية، والشرح الطبقي بين فئات المجتمع «فأدرك المثقف انعدام المعايير والقيم التى تحكم سلوك الفرد وتصرفاته، وجود هذه القيم وعدم فاعليتها مما أدّى إلى تنامى إحساس المثقف بالغربة والانزعال» (أبوشاويش، ٢٠٠٦: ١٢٧)، وبالتالي اختيار المهجر موطنًا بديلاً يعترف بالاختلاف والمغايرة، وظهور هويتين متباينتين فى الوقت نفسه لعدم قدرة المغتربين على تحديد انتماءهم لأى من الوطنين. فتتشكل هوية مركبة مُهجّنة عادة من تتسمّ بالثراء الثقافى كما حصل مع مفكرى وأدباء المهجر.

التخلف

برز مصطلح التخلف بشدة بعد الحرب العالمية الثانية مع حصول عدد كبير من البلدان المستعمرة على الاستقلال. وانطلقت البحوث حوله من منظورات مختلفة بدءاً بالمنظور الاقتصادى وصولاً إلى المنظورات الاجتماعية والسياسية والفكرية. وكثرت تعاريفه فقيل إن الدول المتخلفة هى التى ينتشر فيها الفقر والفقراء، ويعيش فيها القرويون عيشة الكفاف، ولا توجد فيها مصانع قوية تملكها، وتنقصها موارد القوى المحركة، وتقلّ فيها المستشفيات والمدارس ودور الثقافة وتنتشر فيها الأمية. (عبد المولى، ١٩٩٠: ٢٥) وعزت بعض النظريات ظاهرة التخلف إلى شروط جغرافية أو عرقية وذهبت أخرى إلى «إرجاعها للبنية الثقافية الجمادة التى تميز المجتمعات المتخلفة، وإلى العادات والتقاليد التى ورثتها والمتسمة بالسلبية والقدرية والجمود.» (سعود، ٢٠٠٦: ١٩-٢٠) والتخلف من نتاج حركة التوسع الاستعمارى، وما هو إلّا نتاج من نواتج الاستعمار. وقد أرجعت أسباب التخلف فى مجموعها إلى سببين رئيسيين: أسباب داخلية تنطوى

عليها البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع؛ وأسباب خارجية تسيطر على المجتمعات من الخارج وانحصرت غالباً فى الاستعمار. لكن هناك من اتخذ اتجاهاً ثالثاً جمع بينهما فعزا ظاهرة التخلف إلى التفاعل بين السببين. وفى هذا الإطار تبرز مساهمة "مالك بن نبي" فى مؤلفاته المتعددة، فقد أرجع أسباب التخلف إلى سببين: ١. أسباب داخلية (قابلية الاستعمار) ٢. أسباب خارجية (الاستعمار) لكنه عقد تفاعلاً بينها.

يطلق "بن نبي" قابلية الاستعمار على مجموعة عوامل نفسية واجتماعية (الفقر والجهل) تقود الأفراد إلى حالة من العجز والمرض والجمود. حيث يقول: «كلما حاولنا تصنيف مختلف الأسباب التى تعرقل ضروب النشاط فى العالم الإسلامى والتى تزرع القلق والعجز، وأخيراً الفوضى فى حياته، وجدنا أن الأسباب الداخلية التى تنتج عن القابلية للاستعمار هى أسباب ذات الشوكة والغلب.» (بن نبي، ١٩٨٦: ٩٦) ويؤكد أنّ هذه القابلية هى التى ينبغى التنبيه إليها والتخلص منها والكف عن إلقاء تبعات الفشل والتخلف على أسباب وهمية، ويعتقد أنّ التحرر من الاستعمار والإمبريالية يأتى نتيجة التحرر من العقد النفسية ومن قابلية الاستعمار.

فقد لعب الخطاب الكولونىالى دوراً بارزاً فى إرساء فكرة تخلف الشرق وتقدم الغرب وبالتالي ضرورة استعمارهم بغية تحضيره وتهيته أسباب نموه. وظهرت تصنيفات مثل: "العالم الثالث" و"الدول النامية" و"الدول المتخلفة" وما إلى ذلك قياساً بالمركزية الأوروبية. لكن العالم اليوم يشهد نمطاً مختلفاً من تنائية التخلف والتقدم «فينظّم نظام رأسمالى عالمى وحيد تطوّر بعض البلدان وتخلف أو تبعية بلدان أخرى. وينقسم العالم اليوم إلى بلدان رأسمالية متقدمة وأخرى متخلفة بسبب الطريقة التى صارت فيها كلّ واحدة رأسمالية.» (لومبا، ٢٠١٣: ١٧٣) فإننا نرى أن البلاد الشرقية وخاصة التى عانت من الاستعمار المباشر تعانى من التخلف على جميع الأصعدة وهو مؤشر هام على تأزم هويتها وعدم قدرتها على مواكبة تطوّرات العصر.

العنف

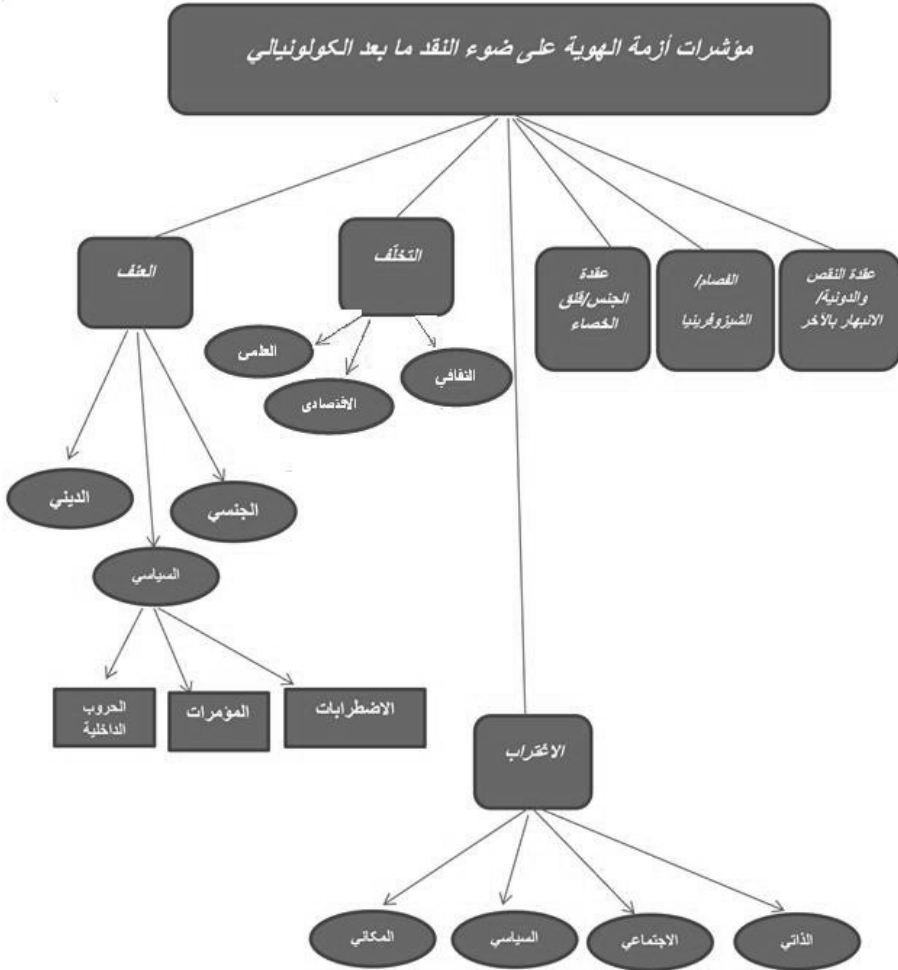
والعنف ظاهرة عامة فى مختلف المجتمعات لكنه يرتبط ارتباطاً جلياً بالمجتمعات

المتخلفة ويكون من سماتها البارزة. ولا نبالغ إذا قلنا أنّ العنف والتخلف صنوان. كما أنه يرتبط بالهويات، إذ إنّ انتشاره بكافة أشكاله يؤذن بأزمة هوياتية على الصعيد العالمي لانتحصر بالهويات الهامشية والمحبطة فحسب، فالكل يحاول فرض هويته ومعالم تفوّقه ولو باستخدام آلية العنف. وليس خافياً أنّ التوسع الاستعماري الذي شمل أكثر من ٨٠٪ من الكرة الأرضية ارتبط بشدة بالعنف ومظاهره المختلفة كالتعنيف الجسدي والنفسي والمتاجرة بالرقيق واستعباد الزوج وإرغامهم على الأعمال الشاقة، ممّا خلف عُقد وتراكمات نفسية كثيرة لديهم. فلا بدّ من آلية تفرغ هذه التراكمات والتوترات النفسية وبالتالي تظهر آلية العنف.

ويعرّف العنف على أنه «الاستعمال غير القانوني لوسائل القهر المادي أو النفسي، إبتغاء تحقيق غايات شخصية أو اجتماعية.» (جواد رضا، ١٩٧٤: ١٤٧) وأنه القسوة والممارسة المكثفة للقهر والقوة نتيجة الإحساس بالإحباط تجاه مطالب الحياة، فيأتي «كردة فعل لإثبات الذات وتحقيق السيطرة على الغير.» (سليمة، ٢٠١٨: ٧) ومصدره القوة بأشكالها المختلفة، «فليست الشرطة، أو الجيش أو السلاح فقط إنما لها أشكال أخرى متعددة، يمكن البرهنة عليها بالنظر إلى المجتمع والحياة اليومية، فكل تراكم للمعرفة الاجتماعية وكل نوع من أنواع التنميط والتصنيف والحكم هو صورة من صور ممارسة القوة وبالتالي العنف.» (حبيلة، ٢٠١٠: ١٥) كما أنّ "قانون" من الرواد الذين حاولوا فهم أسباب العنف وسلط الضوء عليه، خصوصاً العنف المرتدّ على الذات والعنف الموجّه إلى الآخر، وآمن بضرورة استخدامه للردّ على المستعمر الغاصب. ويمكن دراسته بشكل عام في إطار العنف الديني والعنف السياسي.

بناء على ما سبق تركز المحصلة النهائية على مجموع هذه المؤشرات المستخرجة على ضوء النقد مابعد الكولونيالي والتي يمكن اتباعها المتبّعة في تحليل النصوص، والتي تشير ضمناً إلى وجود أزمة هوياتية حيث وجدت. سنقدم لها فيما يلي رسماً بيانياً. عدد هذه المؤشرات لا ينفى احتمالية وجود مؤشرات أخرى غابت عن الباحثين؛ فالهوية عالم رحب ومفتوح يستقطب إبداعات الباحثين وتحريّاتهم دون الوقوف عند حدود معينة خاصة في ظلّ ما تعيشه المجتمعات من تحولات متلاحقة في عالم متغير

بإيقاع سريع، مما يغير الثوابت والمشتريات ويعرض الهويات إلى ضغوط وهزات وأزمات ويفتح الآفاق إلى تجارب إبداعية وجمالية جديدة.
الرسم البياني لمؤشرات أزمة الهوية



النتيجة

عمل الخطاب الكولونيالي، وفقاً لمفاهيمه الاستعمارية السائدة، على تصنيف البشر إلى فئتين: فئة الأوروبيين البيض المتفوقين المتحضرين، وفئة من يقع خارج المنظومة الأوروبية أي المتصّفين بصفات الدونية والبدائية. فكان لقاء الشرق بالغرب من خلال

الاستعمار صدمة هائلة أثارت لدى المستعمرين قلق الهوية وزرعت في نفوسهم الشعور بالدونية، مما خلق لديهم تساؤلات مركزية منها: من أنا؟ من الآخر؟ وما علاقتي به؟ فحفز الاهتمام بإشكالية الهوية.

ظهرت النظرية ما بعد الكولونيالية في منتصف القرن العشرين لتؤكد أنّ مرحلة جديدة من الهيمنة تُعرف بالإمبريالية قد حلّت مكان الاستعمار الكلاسيكي وتمكّن الغرب من استعمار الشعوب دون الحاجة إلى القهر العسكري، فظهر مصطلح "الاستعمار الحديث". وعُنت النظرية بأداب حقبة ما بعد الاستعمار التي جاءت من قبل المستعمرات للردّ على تمركزات الخطاب الغربى وتحيزاته. ووجّهت أقلام الأدباء إلى قضايا الهوية والانتماء وكثرت الروايات التي تناولت اللقاء الحضارى بين الغرب والشرق.

حفز المؤثر الاستعماري ظهور ثنائيات جدلية مثل: التخلّف / التقدّم، العبد/السيد، الهامش/المركز، المرأة/الرجل، المستعمر/المستعمر إلخ، ما دفع المفكرين إلى العودة إلى البحث العميق عن أسباب التخلّف الذى تعانى منه الشعوب الإسلامية عامة والعربية خاصة، وأرجع الأمر برمته إلى وجود أزمة هوياتية كحقل معرفى واسع فى النقد ما بعد الكولونيالى، فكثرت الآراء الواردة حول هذه الأزمة حيث وضعت كل باحث فى فضاء جديد مضطرب الجوانب عديد الوجوه يصعب فهم النص من هذه الوجهة وهذا ما يفسّر ضرورة دراسة تحدّد معالم أزمة الهوية لتشير إلى أهم مؤشراتنا؛ ويبعد مهمة تحليل النصوص الروائى لدراسة أزمة الهوية دراسة موضوعية بعيدة عن اللامعيارية.

ولإنجاز مهمة تحليل النص الروائى لدراسة الأزمة الهوياتية دراسة علمية موضوعية، توصلت الدراسة هذه إلى إطار تحليلى يتألف من ست مؤشرات رئيسية وتفريعاتها لتحليل أزمة الهوية فى النصوص الروائية وهى: ١. عقدة النقص والانبهار بالآخر (التغريب)؛ ٢. الفصام/الشيذوفرنيا؛ ٣. عقدة الجنس/قلق الخشاء؛ ٤. الاغتراب بفروعه الذاتى، والاجتماعى، والسياسى، والمكانى؛ ٥. التخلّف بفروعه الثقافى، والاقتصادى، والعلمى؛ ٦. العنف بفروعه الجنسى، والدينى، والسياسى. والعنف السياسى يشمل الاضطرابات، والمؤامرات والحروب الداخلية. جاءت هذه المؤشرات على ضوء مفاهيم النقد ما بعد الكولونيالى وعلم النفس والاجتماع، وقراءة مجموعة كبيرة من الدراسات المتعلقة

باهوية وقراءة طباقية للثنائيات التناقضية كالمستعمر/المستعمر، المرأة/الرجل، العبد/السيد، الحاشية/المركز، التخلف/التقدم.

المصادر والمراجع

الكتب العربية

- أشكروفت، بيل، جريفيز جاريت، تيفين هيلين. (٢٠٠٥). الإمبراطورية تردّ بالكتابة آداب ما بعد الاستعمار: النظرية والتطبيق. ترجمة وتقديم خيرى دومة. الطبعة الأولى. عمان: أزمنة.
- (٢٠١٠). دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية. ترجمة أحمد الروبي وآخرون. الطبعة الأولى. القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- بابا، هومي. (٢٠٠٤). موقع الثقافة. ترجمة نائر ديب. من مقدمة المترجم. الطبعة الأولى. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- التلاوي، مرفت. (٢٠١٢). العنف ضد المرأة. الطبعة الأولى. مصر: دار التحرير.
- تودوروف، تزفيتان. (١٩٩٢). فتح أمريكا: مسألة الآخر. ترجمة بشير السباعي. القاهرة: سينا للنشر.
- الجابري، محمد عابد. (١٩٩٨). العولمة والهوية الثقافية عشر أطروحات في العرب والعولمة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- جاسم الموسوي، محسن. (٢٠٠٥). النظرية والنقد الثقافي: الكتابة العربية في عالم متغير واقعها سياقاتها وبنائها الشعرية. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- حبيلة، الشريف. (٢٠١٠). الرواية والعنف، دراسة سوسيو نفسية في الرواية الجزائرية المعاصرة. الطبعة الأولى. الجزائر: عالم الكتب الحديث.
- حجازي، مصطفى. (٢٠٠٥). التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور. الطبعة التاسعة. المغرب: المركز الثقافي العربي.
- الجبوري، يحيى. (٢٠٠٨). الحنين والغربة في الشعر العربي. الطبعة الأولى. الأردن: مجدولاي للنشر والتوزيع.
- ريكور، بول. (٢٠٠٩). الهوية والسرد، ترجمة حاتم الورفلي. بيروت: دار التنوير.
- زهران، حامد عبدالسلام. (٢٠٠٥). الصحة النفسية والعلاج النفسي. الطبعة الرابعة. القاهرة: عالم الكتب.
- الزهراني، معجب. (١٩٩٩). صورة الغرب في كتابة المرأة العربية ضمن كتاب أفق التحولات في الرواية العربية. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- سعيد، إدوارد. (١٩٩١). الاستشراق. ترجمة كمال أبو ديب. الطبعة الثالثة. بيروت: مؤسسات الأبحاث العربية.

- _____ (٢٠٠٠). العالم والنص والناقد. ترجمة عبد الكريم محفوظ. الطبعة الأولى. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
- _____ (٢٠٠٣). الآلهة التي تفشل دائما. ترجمة حسام الدين حضور. الطبعة الأولى. بيروت - دمشق: دار التكوين.
- _____ (٢٠٠٤). تأملات حول المنفى. ترجمة نائل ديب. بيروت: دار الآداب.
- _____ (٢٠١٤). الثقافة والإمبريالية. ترجمة كمال أبو ديب. الطبعة الرابعة. بيروت: دار الآداب.
- _____ (٢٠٠٨). أسئلة الهويات والمثاقفة في عصر العولمة. الطبعة الأولى. فلسطين: معهد إبراهيم للدراسات الإعلامية والثقافية.
- _____ (٢٠١٣). فانون المخيلة بعد الكولونيالية. ترجمة خالد عايد أبو هديب. الطبعة الأولى. دوحة-بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- _____ (١٩٩٠). العالم الثالث ونمو التخلف. الطبعة الثانية. تونس: الدار العربية للكتاب.
- _____ (٢٠٠٥). الاغتراب دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية. الطبعة الأولى. الأردن: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- _____ (٢٠٠٠). دراسات في الصحة النفسية (الهوية، الاغتراب، الاضطرابات النفسية). الطبعة الأولى. القاهرة: دار رشاد.
- _____ (٢٠٠٤). بشرة سوداء أقنعة بيضاء. ترجمة خليل أحمد خليل. الطبعة الأولى. بيروت: دار الفارابي.
- _____ (٢٠٠٧). معذبو الأرض. بحث وتقديم ك. شولي. الجزائر: عاصمة الثقافة العربية.

الكتب الفارسية

- _____ (١٣٨٧ش). دانشنامه سیاسی. تهران: مروارید.
- _____ (١٣٨٧ش). مبانی نظریه‌ی ادبی. ترجمه محمدرضا ابوالقاسمی. چاپ دوم. تهران: نشر ماهی.
- _____ (١٣٨١ش). هویت اجتماعی. ترجمه تورج یاراحمدی. چاپ اول. تهران: شیرازه.
- _____ (١٣٧٩ش). زمینه فرهنگ شناسی. چاپ پنجم. تهران: انتشارات عطار.
- _____ (١٣٨٢ش). روان شناسی اجتماعی. تهران: انتشارات آواز نور.
- _____ (١٣٨٩ش). نظریه و نقد پسا استعماری. چاپ اول. تهران: علم.
- _____ (١٣٩٣ش). مذهب علیه مذهب. تهران: انتشارات سپیده باوران.
- _____ (١٣٨٩ه). نظریه‌های شخصیت. مترجم یحیی سید محمدی. چاپ

١٦. تهران: ويرايش.
- عباديان، محمود. (١٣٨٣ش). بحران هويت؛ نه بي هويتي فرد از كتاب هويت و بحران هويت. چاپ اول. تهران: پژوهشكده علوم انساني واجتماعي جهاد دانشگاهي.
- فانون، فرانتس. (١٣٥٥ش). پوست های سیاه صورتکهای سفید. ترجمه محمد امين كاردان. چاپ دوم. تهران: انتشارات خوارزمي.
- فيرحي، داود وديگران. (١٣٨٣ش). مباني نظري هويت و بحران هويت. اهتمام على اكبر عليخاني. چاپ اول. تهران: پژوهشكده علوم انساني واجتماعي جهاد دانشگاهي.
- گاندی، لیلان. (١٣٨٨ش). پسا استعمار گرایی. ترجمه مریم عالم زاده و همایون کاکاسلطان. چاپ اول. تهران: پژوهشكده مطالعات فرهنگي واجتماعي.
- گر، تد روبرت. (١٣٩٤ش). چرا انسانها شورش می کنند؟. ترجمه علی مرشدی زاده. چاپ چهارم. تهران: پژوهشكده مطالعات راهبردی.
- گل محمدی، أحمد. (١٣٨٩ش). جهانی شدن. فرهنگ. هويت. چاپ چهارم. تهران: نشر نی.
- مكاريك، ايرناريا. (١٣٨٨ش). دانشنامه نظريه های ادبي معاصر. ترجمه مهران مهاجر و محمد نبوي. چاپ ٣. تهران: آگه.

المقالات العربية

- آذرشب، محمد علي، فاطمة أعرجى. (١٣٩٦ش). «تمثيل هوية التابع في الرواية العربية الجديدة رواية "شيكاجو" نموذجاً». مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها. السنة الثامنة. العدد السادس والعشرون.
- أبو شوايش، حماد حسن، عبد الرزاق عواد إبراهيم. (٢٠٠٦). «الاغتراب في رواية البحث عن وليد مسعود». مجلة الجامعة الإسلامية. المجلد ١٤. العدد ٢.
- بلاوى، رسول، مرضيه آباد، عباس طالب زاده شوشتری، عباس عرب. (١٤٣٣ه.ق). موتيف الاغتراب في شعر يحيى السماوى. مجلة العلوم الإنسانية الدولية. العدد ١٩ (٣). صص ٩٥-٧٧ بوجملين، مصطفى. (٢٠١٤م). فجيعة الهوية في رواية "حلم على الضفاف لحسيية موساوى - تشظى الآخر أم تغريب قسرى ندوة المخبر

<https://www.univ-biskra.dz/sites/lab/lla/images/pdf/nadoua2/12-03-2014/6:/20%20.pdf>

- فرهنگ نیا، امیر، کبری روشنفکر، خلیل پروینی. (١٤٣٦ه.ق). ظاهرة الاغتراب في شعر عز الدين المناصرة. مجلة اللغة العربية وآدابها. السنة ١١. العدد ٣. صص ٤٠٨-٣٨٧
- ميرزائی، فرامرز؛ بشرى جزائري؛ خليل پرويني؛ هادي نظري منظم. (٢٠١٨). فسام الهوية بين أنوثة

قاهرة ورجولة مقهورة: قراءة ما بعد كولونيالية في رواية العطر الفرنسي لأمير تاجر السر. مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها. السنه التاسعة العدد السابع والعشرون ص ۱۰۴-۸۵
نعمتی، فاروق، جهانگیر امیری، علی سلیمی، عبدالسلام کریمی. (۱۳۹۳ش). الاغتراب ومظاهره فی شعر سید قطب (دراسة وتحلیل). مجلة الأدب العربی. السنه السادسة. العدد الأول. السنه السادسة. صص ۲۳۸-۲۱۸

المقالات الفارسیة

افضلی، علی؛ نسترن گندمی؛ مهدخت نبوی. (۱۳۹۷ش). در جست وجوی خویشتن؛ واکاوی بحران هویت در رمان "ساقه بامبو" بر اساس نظریه "اریکسون". مجلة انجمن ایرانی زبان وادبیات عربی. شماره ۴۷. صص ۹۷-۱۱۶

باغجری، کمال وشهریار نیازی. (۱۳۹۴ش). خوانش پسااستعماری موسم هجرت به شمال اثر الطیب صالح. ادب عربی. دوره ۷ شماره ۱. صص ۸۶-۶۱

شیرزادیان، رضا. (۱۳۸۸ش). مطالعات پسا استعماری؛ نقد و ارزیابی دیدگاه‌های فرانتس فانون. ادوارد سعید، وهومی بابا. فصلنامه مطالعات سیاسی. سال دوم. شماره ۵. صص ۱۷۴-۱۴۹
فاتحی، سیدحسن وی بی راحل سنسنلی. (۱۳۹۶ش). بررسی هویت پسااستعماری در رمان "مملکه الفراشة" اثر واسینی الأعرج با تکیه بر دیدگاه هومی بابا. فصلنامه لسان مبین. سال هشتم. شماره ۲۸. صص ۱۵۵-۱۲۹

فارسی، بهنام، فاطمه شهریاری، محمد مهدی سمتی. (۱۳۹۶ش). عقده حقارت در رمان "ما لاتذروه الريح" با تکیه بر نظریه "آلفرد آدلر". مجلة انجمن ایرانی زبان وادبیات عربی. شماره ۴۵. صص ۱۴۰-۱۱۳

میرزائی، فرامرز؛ یدالله هنری لطیف پور؛ محبوبه رهبر تجارت. (۱۳۹۷ش). خشونت سیاسی جمعی ودولتی وپیامدهای آن در «ستاره اگوست» صنع الله ابراهیم. مجلة انجمن ایرانی زبان وادبیات عربی. شماره ۴۶، صص ۱۴۰-۱۱۹

ناظمیان، رضا ومریم شکوهی‌نیا. (۱۳۹۲ش). مقایسه وتحلیل جلوه‌های پسااستعماری در رمان های "موسم هجرت به شمال" طیب صالح و"سووشون" سمین دانشور. پژوهش زبان وادبیات فارسی شماره ۲۹. صص ۳۲-۱